

## الفن المعماري الأيوبي في قبة الصخرة

لورنس كورن \*

في العام (618 هـ الموافق 1221-1222م)، اجتمع ثلاثة من الأمراء الأيوبيين يحتفلون بنصرهم على الغزاة الفرنجة في الحملة الصليبية الخامسة في المنصورة (1). وكان هؤلاء الأمراء الأكثر قوة من بين سلالة السلاطين الأيوبيين في عهدهم. الكامل محمد ملك مصر وسُلطان الإمبراطورية، وأخواه، المعظم عيسى أمير دمشق وجنوب الشام، والأشرف موسى أمير الجزيرة الغربية (إضافة إلى الرها وحران). غزا الصليبيون مصر عام 615/1218م، وبفتحهم دمياط بعد حصار طويل عام 616/1219م أصبح موقفهم يشكل تهديداً للوجود الأيوبي. استمرت الأوضاع الصعبة على مدى سنتين، ولم تغيرها هجمات المعظم على ساحل فلسطين حتى وصل الأشرف بجيشه من شمال سورية. استطاعت القوات الإسلامية المتحدة أن تهزم الصليبيين وتستعيد دمياط. ويصف المقرئ مصدرنا الرئيس للمعلومات كيف احتفل الأمراء الثلاثة بنصرهم. طلب الأشرف من جاريتيه ست الفخر أن تُغني فشدت بالأبيات التالية:

وجاء إلى مصر ليُفسد في الأرض

ولمّا طغى فرعون موسى ببغيه

فأغرقهم في اليمّ بعضاً على بعض

أتى نحوهم موسى وفي يده العصا

سُرّ الملك الأشرف (الذي كان اسمه الأول موسى) ولكن الكامل لم يكن مسروراً كثيراً، وطلب من جاريتيه الأشرف أن تتوقف عن الغناء وطلب من جاريتيه الخاصة أن تتشد فقالت:

لما قد جرى في وقتنا وتجددا

أيا أهل دين الكفر قوما لنتظروا

وموسى جميعاً ينصرون محمدا

أعباد عيسى إن عيس وقومه

في الواقع إن هذه الأبيات الشعرية التي كانت ترمي إلى تمجيد الدين الإسلامي في مواجهة الديانتين المسيحية واليهودية قد لاءمت الوضع تماماً. وكانت تلمح إلى أسماء الأمراء الثلاثة الذين شاركوا:

موسى وعيسى اللذين هبّا لمساعدة محمد. ويبين التلميح التسلسل الهرمي بين الإخوة بوضوح. وبهذه الطريقة تمت استعادة النظام بين سلطان الإمبراطورية وأمراء المناطق المستقلة.

تؤكد واقعة المنصورة وجهة النظر التي صبغت الفترة، إن لم يكن كامل فترة العصور

الوسطى الإسلامية: التعاليم القرآنية - القصص المسيحي، وكذلك الإسرائيليات التي لا نجدتها كاملة في القرآن الكريم - وافترض مسبقاً أنها مادة معروفة جيداً، مما جعلها ملائمة للتلميحات (2). كل واحد منا يعرف تاريخ الأنبياء والمعجزات التي أتوا بها. وما من أحد إلا - ويعرف شيئاً عن الأماكن التي عاشوا بها أو دفنوا فيها (3). وفوق هذا نظر إلى حياة الأنبياء كصورة مسبقة للأحداث التاريخية والسياسية اللاحقة. وهكذا فإن العلاقة بين موسى الذي أغرق جنود فرعون في البحر الأحمر، وموسى الذي استغلت قواته فيضان النيل في دلتا مصر لضرب الفرنجة هي علاقة تماثل تام.

هنالك حالة أخرى تتضمن تلميحات نبوية وقعت في العهد الأيوبي وهي بخصوص القدس. المدينة المقدسة في أيدي المسلمين منذ إعادة فتحها على يد صلاح الدين عام (583/1187م)، عادت مؤقتاً للحكم الصليبي بموجب المعاهدة التي أبرمت بين السلطان الكامل محمد والامبراطور الألماني فريدريك الثاني في العام (626/1229م) (4). وعندما انتهت مدة المعاهدة قام أمير الكرك الناصر داود بطرد القوات الفرنجية الضعيفة من قلعة القدس واحتل المدينة عام (637/1239-40)، وفي رسالة بعث بها إلى بغداد أعلن داود انتصاره في هذه الحملة - وكانت هذه عادة جرى عليها الأمراء الذين كانوا يسعون لنيل الاعتراف بهم من قبل ديوان الخليفة، مهما كان انتصارهم بسيطاً. وبعد إعلان النصر، تناولت الرسالة كما يقول المؤرخ عز الدين بن شداد (5)، الخطط المستقبلية للناصر داود: كان يخطط لتغيير شكل القلعة ليعيد تكريس قدسية الحرم القديم الواقع في الداخل، والذي كان محل توقيف من المسلمين ويسمونه محراب داود (6). وعلى ما يبدو أن داود كان يفكر بشيء فخم ليكون مركزاً للتدين وحرماً باسم النبي داود، لأنه كان سميّه، وكان هذا المكان ملائماً لرعايته.

وعليه نذكر أن التماثل بين عصر الأنبياء والعصر الحاضر (العصر الأيوبي) كان يعتبر ذا معنى في النشاط العمراني.

وإضافة إلى ذلك فإن أمثلة المنصورة (618/1221-1222م) والقدس (637/1239-1240م) تشير إلى أن التماثل بين الماضي الإنجيلي والحاضر لم يقتصر على مقارنة قامت على أساس العنصر الثالث المجرد فحسب، بل تضمنت أيضاً التزاماً شخصياً وعاطفياً، ولم يكن ذلك فقط لاعتبار الحاكم (سليمانياً) في سلطته وحكمته وقصره المُنظر لقصر سليمان في روعته، ولكن التماثل كان مباشراً وشخصياً بشكل أكبر بكثير بحيث يجعل داود يعتبر نفسه (داود عصره).

وتنتشر في الحرم الشريف مبانٍ متعددة يعلو أهمها قبة؛ قد تعود للعهد الفاطمي على أبعد حد، وتشير المصادر المكتوبة أن طريقاً للحجّ مر حول الحرم وتضمين محطات مختلفة تتصل كل واحدة منها بنبي أو بحوادث تاريخية أو أسطورية (7). حول الصليبيون المنطقة بإعادة تفسير عناصرها بطريقة مختلفة وفقاً للمعتقدات اللاتينية المسيحية. وقاموا أيضاً بتعديل بناء الحرم، ومثال ذلك إضافة بعض المباني في الجهة الشمالية من

شرفة (تراس) قبة الصخرة حيث وضع دير أغسطس (8). وبعد إعادة فتح المدينة على يد صلاح الدين اتبعت الإصلاحات الإسلامية وإعادة البناء نظراً محددة بالنسبة للحرم ترجع إلى ما كان عليه الحال قبل الصليبيين ولكن ليس بالضرورة مطابقاً تماماً لها (9).

جدد صلاح الدين المسجد الأقصى ليكون جامعاً تقام فيه صلاة الجمعة ووضع المنبر الثمين الذي كان سلفه نور الدين أمر بصنعه في حلب على حائط القبلة وتم تزيين المحراب بتشكيلة من الرخام المزخرف والفسيفساء المزججة. وتشير النقوش في أعلى المحراب إلى أن صلاح الدين نظر إلى إعادة فتح القدس على أنها مهمة قام بها بأمر من الله. وبالمثل قام صلاح الدين بترميم قبة الصخرة وأعاد تكريسها كحرم إسلامي وتم غسل الصخرة وتطبيبهها، وأزيلت عنها الصور المسيحية والنقوش اللاتينية والإضافات الأخرى (10). فأصبح واضحاً أن المباني في الحرم الشريف أصبحت تتمتع بالاحترام والتبجيل. ولكن ما هي التقاليد التي صبغت بها في ذلك الوقت وبالأخص قبة الصخرة المشرفة؟

أحد مصادرنا في التفاسير التي كانت سائدة في عهد صلاح الدين هو عبد الرحمن بن الجوزي صاحب (فضائل القدس) وهي الرسالة التي كتبها بعد فتح القدس بوقت قصير. فوفقاً لابن الجوزي فإن القدس خلقت بنفس الوقت الذي خلقت فيه مكة والمدينة قبل كل الأماكن على وجه الأرض. وتركزت البركة الإلهية على هذا المكان الذي ينظر الله إليه مرتين في اليوم على الأقل. وزار جميع الأنبياء القدس وصلوا فيها. والصخرة هي المكان الذي صعد الله من عليه إلى السماء بعد أن أنهى خلقه، وسيكون عرش الله عليها يوم الحساب. وتعتبر الصخرة مركز العالم، قلب العالم الحقيقي (11). من الجلي أن ابن الجوزي يعيد الأحاديث السابقة والتي هي في معظمها يهودية وشكلت خلفية لعبد الملك بن مروان لبناء الصخرة المشرفة في القرن الأول الهجري/ السابع ميلادي (12). ونعرف من خلال نصه أن معراج النبي محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن بعد متصلاً بالصخرة ونرى أن ابن الجوزي يذكر بكل وضوح مكاناً آخر وهو قبة المعراج التي تم إحياء ذكراها. ويثبت تجديد قبة المعراج عام (1200-1201م) بأن هذا الإحياء قد كرس، حتى لو كان من الصعب الإفادة ما إذا كانت القبة إنشأه أيوبيا أو مجرد تعديل على بناء صليبي قائم (13). وعلى أي حال فإن التقليد المعماري القديم لذلك العهد المعروف بالبغدادي والذي استخدم لتمييز الأماكن المقدسة قد استخدم في القبة أيضاً. واستمر متواصلاً في العهد الأيوبي كما سنرى.

وفي المبنى المستدير الذي يتوسط قبة الصخرة يُلاحظ أن القوالب التي تفصل الأروقة السفلية عن الزخرفة المنقوشة في شكل الطبل مزينة بالفسيفساء ذات الأشكال الهندسية والنباتات باللونين الأخضر والذهبي، ووجد فوقها طوق منقش بنفس الأسلوب مما ينم عن أسلوب نقش مثير للاهتمام (14). ومن خلال حروفها الناشئة المستديرة يمكن تأريخها بالقرن (6-7 / 12-13م)، وليس من المستبعد أن ما تبقى لدينا في هذا المكان هو فقط جزء من تجديد قبة الصخرة الذي تم إبان حكم صلاح الدين. ولا يوجد مصدر مكتوب

يحدد العمل الذي أجري على قبة الصخرة في هذه المناسبة، سوى ما يخص تطهير المبنى، جزء من نص منقوش (النقش نفسه مفقود) بقي موجوداً عند إعادة لاحقة ويُسِيرُ إلى أن باطن القبة قد تمت إعادة تزيينه (15).

يحتوي النقش الفسيفسائي المحفوظ على القالب آيات من القرآن الكريم وهي الآيات من (1-21) من سورة طه متبوعة بعبارة (صدق الله العظيم) ولتسهيل المراجعة يتعين علينا أن نورد النص القرآني كاملاً:

بسم الله الرحمن الرحيم (طه، ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى، إلا تذكرة لمن يخشى، تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى، الرحمن على العرش استوى، له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى، الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى، وهل أتاك حديث موسى، إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إني أنست نارا العلى أتاكم منها بقبس أو أجد على النار هدى، فلما أتاه نودي يا موسى، إني أنا ربك فاخلع نعليك إني في الوادي المقدس طوى، وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى، إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري، إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى، فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى، وما تلك بيمينك يا موسى، قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غممي ولي فيها مآرب أخرى، قال ألقيها يا موسى، فألقاها فإذا هي حية تسعى، قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى).

وردت الكتابة في المجموعة الكاملة لماكس فان بيرشم ولكنه تعامل معها (كما تعامل مع جميع الآيات القرآنية) بالتطرق إليها باختصار وبدون مزيد من المناقشة حول سبب هذه الآيات في هذا المكان (16). وتناولت مريم روزن – أيلون هذه المهمة ويعود لها الفضل في جلب الانتباه إلى تلك الكتابة. وتشير في مقالة موجزة (17). إلى أن الآيات من سورة طه يتعين أن ينظر إليها في سياق استعادة صلاح الدين للقبة، وتشدد على الجملة الأخيرة. (سنعيدها سيرتها الأولى). تؤكد على أن هذه الجملة تشير إلى تكريس عودة الصخرة إلى حالتها الأصلية. وهذا هو المعنى الدقيق للكتابة: إن قبة الصخرة التي كانت المعبد الإلهي تحت حكم الصليبيين عادت الآن لتصبح قبة الصخرة للمسلمين، والأفعى التي أخبر صلاح الدين أن لا يخاف منها وأن يستولي عليها هم الصليبيون.

هل يعني هذا أن إعادة تكريس القدس كمعلم ديني كان معجزة، ما كانت لتحدث إلا بأمر إلهي؟ وهل تعني أن صلاح الدين شبه نفسه بموسى ليكون الرجل الذي نزلت عليه بركات الله؟

ربما صيغ هذا التفسير باقتضاب شديد ليتضمن ما تتطوي عليه هذه الفرضية. وأود أن أتناول الآية الأخيرة كدليل على أن تاريخ الكتابة يعود حقاً إلى فترة تجديد قبة الصخرة في عهد صلاح الدين. ولكنني مقتنع أيضاً أنه لا ينبغي أن يؤسس التفسير على الآية الأخيرة وحدها، ولكن الأخذ بعين الاعتبار الآيات الأخرى من الجزء الذي تم اقتباسه. ما هو الفهم لسورة طه؟ وماذا نستطيع أن نقول عن معنى ذكر موسى فيما كتب في وقت للتجديد الذي

قام به صلاح الدين؟

نعلم من كتب التفسير التي عُرفت في ذلك الوقت أو تلك التي كُتبت بعده بقليل أن الأحداث التي وقعت مع سيدنا موسى عليه السلام في الآيات من (1-21) قد وضحت في سياق بيوغرافي، مع أخذ الخلفية الجغرافية بعين الاعتبار.

وعليه جاء في تفسير الكشاف للزمخشري ما معناه أنه أخذ حديث موسى كتلميح لنفي موسى إلى مدين والتي عاد منها إلى مصر بعد عدة سنوات (18). ونجد نفس التفسير عند ابن كثير (19). كما نجد السيوطي أكثر وضوحاً ويضع وادي طوى في سيناء وهذا منطقي تماماً ومستنتج من الطريق من مدين إلى مصر (20).

ويشرح النَّفي بأسلوب قصصي قائلًا: نعرف أن موسى قد ضلَّ طريقه بحيث إنَّ النار التي رآها جذبتَه لأنه توقع علامة تدلُّه على طريقه (21). ولكنَّ معظم المادة المجموعة في التفاسير تُعنى بمسائل فقه اللغة بدلاً من أن تُعنى بدور النبي في علم الكلام الإسلامي.

ونعلم أن موسى هو النبي الأكثر ذكراً في القرآن، كما نجد عناصر قصته منتشرة في العديد من السور (22). ونجد قطعاً من سيرة موسى المختصرة في مصادر أخرى مثل تاريخ الطبري (23).

وُلد موسى لعائلةٍ إسرائيليةٍ في مصر في وقتٍ كان المصريون يضطهدون فيه الإسرائيليين. كان أطفال الإسرائيليين يُقتلون بأمرٍ من فرعون، ولكنَّ موسى نجا لأن أمه وضعتَه في تابوتٍ وألقته في النيل. عثرت أميرة فرعونية على الطفل وربته. وعندما أصبح موسى راشداً كان عليه أن يغادر مصر لأنه قتل رجلاً مصرياً في شجارٍ وقع بينهما. هاجر موسى إلى مدين واشتغل راعياً لدى شتعيب وأسَّس عائلة. وبعد بضع سنين عاد موسى إلى مصر، وفي الطريق اختاره الله نبياً كما قرأنا. وعصاه ويده البيضاء هما علامتا النبوة. قاد الإسرائيليين من مصر إلى (الصحراء). وفلقت عصاه البحر الأحمر وفجر الماء من الصخر. وفي طور سيناء تلقى موسى ألواح الشريعة. وبعد أربعين سنة من التيه في الصحراء وصل هو والإسرائيليون إلى حدود الأرض المقدسة و تُوفي موسى. ويقول الطبري بأن مكان قبره غير معروف.

ومن الواضح أنه وحتى من خلال القصص التي رُويت عن حياته، فإنَّ موسى لم يضع قدمه على تراب القدس - وظهرت المدينة بعد وقتٍ طويلٍ في التاريخ التوراتي.

**فلماذا إذن يشير إليه الفنانون الأيوبيون وإلى عصاه؟**

في رأيي يكمن سبب المقارنة في عنصر محدد في الآيات القرآنية المقتطفة - فهي تذكر، وفي إطار هذا السياق أيضاً تأتي قدسية المكان. وقبل الإشارة إلى موسى تؤكد الآيات على وحدانية الله وعظمته (الله لا- إله إلا- هو له الأسماء الحسنى). وفي قصة الشجرة المتقدمة فإنَّ العنصر البارز هو (تجلي الإلهي لسيدنا موسى، ليس فقط من خلال

علامة، بل بالتحدث مباشرة إليه. وهذا ما يميزه عن بقية الأنبياء: فموسى هو كليم الله اختاره الله من بين الناس. ويوضح الزمخشري ذلك بأنه السكنينة أقيمت عليه (24) - فحضور الله تعالى هو بيت القصيد في القصة، وهو أيضا العنصر المركزي في تفسير قبة الصخرة الأموية. وعليه، فإنني أنظر إلى الآيات القرآنية في سورة طه أولاً على أنها تؤكد قدسية الصخرة.

ونجده قد عبّر عن قدسية المكان بأمره (فاخلع نعليك) الأمر الذي نميل لفهمه - غالباً بالحدس - علامة على طهارة المكان، يقول الزمخشري (احتراماً للبقعة وتشريفاً للقدسية) (25). ويشرح النفي بأسلوب تقني بأن على موسى أن يدخل في بركة المكان بقدمه. ويحمل وادي طوى اسم الوادي المقدس، وبينما حاولت غالبية المعلقين بجهد إعطاء تفسير إيثيمولوجي لطي، نجد أيضاً في تفسير القرطبي أن الوادي كان مقدساً لأنه كان طاهراً، وكان طاهراً لأن الله أخرج كل الكفار منه وعمّره بالمؤمنين: سمّيت بذلك لأن الله تعالى أخرج منها الكافرين وعمّرها بالمؤمنين 26. وبهذا المعنى فإن التماثل بين وادي طوى والصخرة أصبح جلياً. فالله تعالى أخرج الصليبيين من القدس - على يد صلاح الدين - كما تنص على ذلك الكتابة في المسجد الأقصى - وهكذا جهزت المدينة لإعادة تكريسها مكاناً مقدساً لدى المسلمين.

وربما يقول قائل إن صلاح الدين قد واجه صعوبات وهو يرى نفسه يلعب دور النذ لموسى - عليه السلام - وعلى الرغم مما ذكر، فقد سبق أن ارتبط اسمه بشكل وثيق بشخصية إنجيلية أخرى ألا وهو سميح يوسف (27). جاء بيوسف إلى مصر بدون جهد كبير من نفسه وقد وصل إلى أعلى مراكز السلطة. وشاعت تورات كثيرة حول يوسف خلال السنوات الأولى من حكم صلاح الدين. وعلى أي حال يمكن أن يُنظر إلى السنوات الأخيرة في حكمه بأنه مُناظرٌ لموسى: قاد صلاح الدين قواته عبر سيناء، تماماً كما قاد موسى أبناء إسرائيل (28). ومثل موسى كان يدور في فكر صلاح الدين هدفٌ واحدٌ: أرض الميعاد، أو الأرض المقدسة والتي احتلت بواسطة شعوبٍ مُعادية. وعلى العكس من موسى لم يُتوفَّ صلاح الدين في جبل نبو، بل استولى على الأرض المقدسة من جهة الشرق، تماماً كما فعل الإسرائيليون بعد وفاة موسى. ومن ناحية، فقد أنجز خطط موسى للمرة الثانية. فهل لنا والحالة هذه أن نستغرب أن يُفتتح كتاب ابن الجوزي (فضائل القدس) بكلمات النبي موسى التي وجهها لبني إسرائيل (يا قومي أدخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم).

من الواضح أن ذكرى موسى ضربت جذوراً راسخةً في الطبوغرافية المقدسة للقدس بدليل نقشها على قبة الصخرة المشرفة (29). ويبدو أن غرس موسى في طبوغرافية القدس كان نجاحاً. وهذا في الحد الأدنى مُسجّلٌ بأثرٍ آخر من آثار العصر الأيوبي المتأخر.

يقع المبنى المُسمّى قبة موسى في الجزء الغربي من الحرم بين الركن الجنوبي الغربي لمنبر قبة الصخرة وباب السلسلة (30). وعند الدخول من البوابة المزدوجة لباب السلسلة

وباب السكينة تكون قبة موسى في المواجهة مباشرة أو على يمين الشخص الداخل تشكّل قبة موسى النهاية الجنوبية للممرّ ما بين منبر قبة الصخرة والرواق الغربي للحرم.

وفي طوبوغرافية الحرم تلعب هذه المنطقة دور همزة الوصل ما بين المدينة وقبة الصخرة، ويتعين على الناس عبورها عند الدخول من البوابات الرئيسية وعند التوجه من أماكن الضوء إلى المسجد الأقصى. وتشتمل المنطقة على مبانٍ صغيرة يغلب على الظن أنها ذات علاقة بأحواض المياه ومنشآت المياه الأخرى.

أنشئت قبة موسى عام (647/1249-1250) بواسطة الصالح أيوب حاكم مصر. ارتقى أيوب العرش في القاهرة عام (637/1240). ومن هناك وسّع سلطته إلى جنوب الشام. وفتح جيشه دمشق في عام (643/1245). يدين أيوب بجزءٍ من سلطته لابن عمه الناصر داود أمير الكرك، وقبل أن يتولى السلطة في مصر كان نصف ضيف ونصف سجين في الكرك وكان الناصر يخطط لإعادة كسب إمارة دمشق، التي سبق أن حكمها والده وقدم دعمه لأيوب مقابل تأييد مطالبه. وقبل ذلك بقليل كان قد استولى على القدس من أيدي الفرنجة (انظر أعلاه) وعليه أخذ أيوب إلى الحرم الشريف لتأكيد تحالفهما بتأدية القسم على ما اتفقا عليه في الحرم المقدس (31).

ويظهر من نوع البناء أن قبة موسى هي مبنى تذكاري. ويدل شكلها على إمكانية استخدامها مدافن أيضاً، ولكن لا توجد تربة بالحرم – وهي قبة مثل سائر القباب في الحرم. ما الذي كان يقصد أن تُذكر به؟ الكتابة الموجودة على المبنى لا تقدم لنا إلا القليل من المساعدة، ومفادها أنّ المكان بناه الصالح أيوب. هل من الممكن أن الصالح أيوباً الذي أصبح سلطان مصر وحكم جنوب الشام، أراد أن يحيى ذكرى العام (637) في حياته السياسية واجتماعه مع داود في القدس بتشييد قبة في الحرم؟ لا اعتقد ذلك، لأن أيوب لم يلتزم ببنود الاتفاقية مع داود، ولأنه فاز بعرش القاهرة لم يدعم قط مطالب ابن عمه في دمشق، ولكنه سعى لبسط سلطته على سوريا.

وقد يفترض المرء أن أيوب حاول أن يجعل قصة وصوله للسلطة وتحالفه مع أيوب نسياً منسياً.

ويبدو أنه وبشكلٍ منفصلٍ عن هذه الحادثة الأخيرة، كانت لأيوب خطته الخاصة بشأن القدس. عندما احتلت قواته المدينة في عام (642/1244) قام بزيارة للمدينة المقدسة. ونعلم من خلال المصادر أنه أمر بقياس طول أسوار المدينة القديمة (32) وأفترض أنّ أيوب أراد أن يعيد بناء أسوار المدينة التي دمرها المعظم عيسى، وأن يعيد للمدينة المقدسة سناها وروعيتها. ووجود قبة جديدة في الحرم دليل على رعاية أيوب تؤيد هذه الخطة. ولكن هذا في الواقع تفسيرٌ عامٌّ لا يبرر الموقع المحدد للمبنى ولا اسمه. وقد يعتقد المرء بأن أيوب أراد أن يماثل عهده السياسي بحياة النبي موسى، مشابهاً لما ذكرنا بالنسبة لصلاح الدين. شق أيوب طريقه من مصر إلى بلاد الشام وتمكن من فتح الأرض المقدسة، ولكن هنا يبقى التشابه سطحيًا بالمقارنة مع حالة صلاح الدين.

لماذا سمي المبنى إذن (قبة موسى)؟ ولم يُسمَّ (مقام موسى). حيث إن موسى لم يدخل القدس. ولا يسعفنا المؤرخ المملوكي مغير الدين (الحنبلي) مؤرخ القدس والذي كان على معرفة وثيقة بطوبغرافية القدس ومعالمها المقدسة بشيء بهذا الشأن.

أما بالنسبة للقبة المقابلة لباب السلسلة، المعروفة بقبة موسى فإنها لا تشير إلى النبي موسى، وليس لدينا معلومات مؤكدة عما تشير إليه. وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل هو الذي أمر ببنائها في عام وفاته (649) (!). وعُرفت سابقاً أيضاً باسم (القبة الصغرى) (33) والاسم الأخير (القبة الصغرى)، نتيجة لما قرأناه سابقاً، ويوضح العلاقة مع النبي موسى، على الرغم من إنكار المؤرخ مجير الدين لذلك.

يجب أن نشير إلى نفس الحدث الذي تشير إليه الكتابة المنقوشة على قبة الصخرة: الشجرة التي تشتعل فيها النار وحديث الله - عز وجل - إلى سيدنا موسى.

أكدنا بأن المقتبس من سورة طه في قبة الصخرة يشدد على قدسية المكان الذي تجلى به الله تعالى. وهنا ربما تكون الحالة نفسها، وبخاصة فيما يتعلق بالبوابة المسماة (باب السكينة) (34). نتذكر قول الزمخشري في تعقيبه على سيدنا موسى في السورة رقم (20): (فألقيت عليه السكينة). الكلمة العربية التي مشتقة من (العبرية) (شخينة) وفي العرف اليهودي كانت الشخينة تعتبر ظاهرة بينة في المكان والزمان، وربما أحياناً في الشكل. وهكذا رمز المدراس إلى اللهب المنبعث من الشجرة بأنه تجلي الله تعالى مستعملاً عبارة شخينة (35).

وأي مكان تظهر السكينة فيه يُعتبر مقدساً ولا يُسمح فيه بارتداء الحذاء. وفي مثال آخر أخرجت الشخينة من العالم بسبب ذنب الإنسان، ولكن موسى هو الذي أعادها إلى الأرض (36). ويمكن أن نرى تطوراً مُناظراً في فكرة المسلمين عن السكينة. فالبنسبة للتقليد الإسلامي يمكن ملاحظة تطور استبدال الفكرة السابقة للسكينة التي كانت تعتبر شيئاً مرئياً بفكرة مجردة بشكل أكبر (37). وعلى أي حال، فإن التقاليد المنقوشة التي ربطت السكينة بـ(تابوت السكينة) كانت معروفة بشكل جيد الأوائل المسلمين (38). لأن الحرم القدسي، وباب السكينة وثقه أولاً الجغرافيون والرحالة في القرن (4-10/5-11). من الصعب تحديد مكان هذه البوابة قبل الصليبيين، ولكن يبدو واضحاً أنه بعد إعادة الفتح الإسلامي فإن الاسم أطلق على باب السكينة الحالي المجاور لباب السلسلة (39). يربط الرحالة الفارسي ناصري خسرو في القرن (4/11) البوابة بالأسطورة القائلة أن تابوت العهد كان قد وُضع هنالك (40).

وختاماً، ربما يفترض المرء أن قبة موسى بنيت لإحياء ذكرى موسى كليم الله، بمعنى ذكرى الحضور الإلهي الله مع موسى في الحرم. وفي العصر الأيوبي المتأخر قد يشعر المرء بأن ذكرى موسى القائمة فعلاً في القدس بالكتابة التي نقشها صلاح الدين على قبة الصخرة، تحتاج إلى مرجع مباشر آخر في مبنى منفصل عن الصخرة.



النبي الذي تنبأ بفتح الأرض المقدسة تلقى الاحترام الذي يليق بمكانته طيلة فترة حكم السلالة التي حققت هذا الفتح للمرة الثانية. وكان من الملائم وضع القبة بعد باب السكينة. وإلى جانب هذا فقد كان ملائماً بالنسبة لما يخص النبي موسى الذي فجر الماء من الصخرة أن توضع قبة موسى في المكان الملائم لها أيضاً. فهي تقع إلى جوار المكان الذي تدخل منه قنوات المياه إلى الحرم من المدينة، تحت البوابة المزدوجة لباب السكينة و باب السلسلة لتملاً الأحواض التحت أرضية تحت منبر الحرم(41).

بقي المبنى كتذكار باسم موسى، الذي له خلافاً لذلك رابطةً ضعيفةً مع المدينة المقدسة. وتبقى الكتابة المنقوشة على قبة الصخرة أحد آخر الشواهد على إعادة صلاح الدين القدس للحكم الإسلامي. ويظهر كلا العنصرين كيف أن رسالتي الإنجيل والقرآن قد كُيفتا لتلائما الوضع المعاصر. ومن منظورنا الحاضر فإن تبني الماضي ليُجعل مثالا، واستخدامه في سياق جديد يبدو وكأنه مفهومٌ يتكرر في التاريخ بنجاح متفاوت.

\*\*\*\*\*

### الهوامش:

(\* باحث وأكاديمي من ألمانيا.

1- المقريري: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق محمد مصطفى زيادة، القاهرة 1934-1958م، م 1، ق 1، ص 209-210.

2- عن علاقة القصص القرآني القصص التوراتي أنظر كتاب شبائر عن ذلك (1936م)، وكتاب توتولي عن أنبياء بني إسرائيل في القرآن والأدبيات الإسلامية (2002م). وانظر عن (الإسرائيليات) مقالة قايدا في دائرة المعارف الإسلامية الجديدة، م4، 211-212.

3- تشير المشاهد والمقامات المنتشرة في أماكن مختلفة من بلاد الشام لأنبياء العهد القديم إلى بقاء أشخاصهم في الذاكرة الشعبية. قارن بكتاب علي الهروي: الإشارات إلى معرفة الزيارات (ترجمة سوردل إلى الفرنسية عام 1953م). وأهم مواطن الأضرحة من الناحية الدينية بمدينة الخليل. أما في حلب فإن تلك المشاهد والمقامات لقيت عناية خاصة في العهد الأيوبي. ولي (L. Korn) كتابٌ عن الهندسة المعمارية الأيوبية.

4- عن القدس الأيوبية قارن بدراسات Little وكامل العسلي، والدراسة التي حررتها (L. Korn) عن الدلالات التاريخية والاجتماعية للبناء بالقدس بين العصرين الفاطمي والعثماني (2004م).

5- عز الدين ابن شدّاد: الأعلام الخطيرة. تحقيق سامي الدهان (1956-1962م).

6- هربرت بوسه: محراب داود؛ مقالة في مجلة JSAI، م17، 1994م، ص 142-165.

7- قارن بدراسة كابلوني عن المسلمين والمسيحيين واليهود بالقدس في العصر الفاطمي؛

وهي مقالة في الكتاب الذي حررته عن الحُكم في المدينة المقدسة (2004م)، ص33-45.

8- قارن بدراسة بييرشتاين وبلود هورن عن عمران القدس من الأزمنة القديمة واعلى بدايات العصر العثماني (1994م).

9- كورن: الدراسات السالفتا الذكر في الحاشيتين 3،4.

10- الكاتب الأصفهاني: الفتح القسبي في الفتح القدسي. نشرة لندبرغ 1888م، ص61-62، 65-68، وابن شداد: سيرة صلاح الدين، تحقيق جمال الدين الشبّال، 1962م، ص82، ومجير الدين الحنبلي: الأُنس الجليل. نشرة النجف، 1968، م، ا، ص331، 339-340.

11- ابن الجوزي: فضائل القدس. تحقيق جبرائيل حبّور. بيروت 1979م، ص72-73، 84-85، 139-141.

12- قارن بمقالد فان أس عن (عبدالمك ومسجد قبة الصخرة) في كتاب رابي وجونز عن القدس في عهد عبد الملك. القسم الأول. أوكسفورد 1992، ص89-103، ودراسة كابلوني عن الحرم الشريف (324-1099هـ). شتوتغارت 2002م.

13- كورن، المرجع السابق (حاشية رقم3)، م2، ص70-77.

14- روزن – أيالون: العمارة الإسلامية المبكرة في الحرم الشريف. القدس 1989، ودراسة نُسيبة- غرابار عن قبة الصخرة، 1996، ص112-113، 120-121، 124-125.

15- فان برشم: سورية الجنوبية، القدس (1920-1972م)، م2، ص289-298، وولز- أبوالحاج: النقوش العربية في القدس، لندن 1980م.

16- فان برشم، المرجع السابق، ص369-370.

17- مقالة روزن-أيالون عن الرموز المسيحية والإسلامية في القدس، في الكتاب التذكارى ليزال ناركييس، نشر كينل، ص463-466.

18- الزمخشري: الكشاف. بيروت 1986م، م3، ص35.

19- ابن كثير: تفسير القرآن. بيروت 1986. م3، ص150-151.

20- السيوطي: الدر المنثور. بيروت 1990م. م4، ص523.

21- النسفي: تفسير القرآن. بيروت، بدون تاريخ، م2، ص351.

22- قارن بتحليل للأدبيات الإسلامية عن موسى لدى ر. بتوتولي: أنبياء التوراة في القرآن

- والأدبيات الإسلامية، 2002م وبخاصة ص 31-35. ودراسة ويلر : موسى في القرآن وكتب التفسير. لندن 2002.
- 23- الطبري : تاريخ الرسل والملوك. نشرة دي غويه (ليدن 1879-1901م) ، م 1 ، ص 463-467.
- 24- الزمخشري، المصدر السابق.
- 25- الزمخشري، المصدر السابق.
- 26- القرطبي الجامع لأحكام القرآن. القاهرة (1952-1965م). م 11، ص 175.
- 27- دراسة مورنغ عن قصة يوسف وانتظار المهدي وأهداف صلاح الدين كما تظهر في الشعر؛ في كتاب (1997 Leve م) عن الحرب والمجتمع في مجتمعات شرق المتوسط، ص 177-223.
- 28- انظر عن (عيون موسى) في سيناء دراسة موتون في AI 30,1996 .
- 29- يخطر على البال مباشرةً مقام النبي موسى قرب أريحا، والذي اتخذ شكله الباقي في مصر الظاهر بيبرس. وقارن بمقالة Sadan في REI 49,1981.
- 30- دراسة كورن السالفة الذكر في الملاحظة رقم 3.
- 31- ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار نبي أيوب، القاهرة 1977م، م 5، ص 259.
- 32- المقرئزي (حاشية رقم 1) م 1، ق 1، ص 326-327.
- 33- مجير الدين الحنبلي (حاشية رقم 10) م 2، ص 21.
- 34- هناك ترجمة غير ملائمة لاسم الباب إلى الإنجليزية عند نسيبة و غرابار (المرجع المذكور في حاشية رقم 14) ص 31.
- 35- قارن بدارسة غولد برغ عن (السكينة) في الأدبيات اليهودية (1969م).
- 36- المرجع نفسه، ص 13-20، 187.
- 37- مقالة غولديزير عن (السكينة) لدى المحمديين في RHR, 1893 ، ص 1-13.
- 38- دراسات ويلر وتوتولي السالفة الذكر.
- 39- دراسة A.Elad عن العبادات الإسلامية في القدس في العصور الوسطى. لبدن 1995م، ص 109-114.
- 40- ناصري خسرو: سفرنامه. ترجمة شيفر إلى الفرنسية عام 1881. وبخلاف ما يذهب إليه كابلوني (ملاحظة 12) لا- أرى أنا مصطلح (تابوت موسى وهارون)، الوارد عند

الواسطي في فضائل بيت المقدس، ينبغي أن يُترجم بـ(ضريح موسى وهارون)؛ بل المقصود: تابوت العهد.

41- كتاب غبسون – جاكوبسون عن القنوات والتجهيزات المائية تحت الحرم الشريف.  
أوكسفورد 1996م – وبخاصة اللوحة رقم 86.